الي بئر جنـــدلي

للاستاذ الدمرداش محمد

مدير ادارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

— ٣ —

لحظة رهيبة مرعبة ، ولولا أن ملك الجماعـــة زمام عقولهم وتصرفوا بما يستلزمه الموقف من بديهة حاضرة وهمة عالية ، لسقط اجمد بك فى الهاوية ، ولا أدرى الآن ، وقد توالت الحوادث بسرعة مدهشة ، كيف نسي الرفاق أن ينتشلوا زميلهم من ورطته ، وعلى كل حال فقد انتهى الحادث بسلام ، وعاد الجماعة الى ما كانوا فيه من مطاردة الأرانب ، وعند الظهر كانوا قد أنهكهم التعب وأضناهم الجوع ، فملوا المطاردة وقنعوا بما أصابوه فى ذلك اليوم وكان شيئا كثيراً ، فحثوا المطايا في السير كى يصلوا وادى جندلى فى الموعد المضروب .

وكانوا حينئذ يسيرون على ظهر ربوة عالية وعن يسارهم نحو الشمال ، جبل اليحموم الازرق بلونه القاتم ، وعن يمينهم نحو الجنوب جبل ابو شامة بقمته العالية (٢٣٠٠ قدم) ، وكانوا كلما توغلوا شرقا تغيرت معالم الجبال وزادت ارتفاعا ، والأودية خضرة وعمقاً ، وقبل الاصيل أقبلوا علي واد شديد الانخفاض كثير التعاريج كبير الشبه بوادى دجلة ونظروا من عل فابصروا الجمال ترعى فى باطنه والاستعداد قائم حولها لتهيئة الطعام واعداد مكان المبيت ، فطابوا نفساً وقروا عيناً .

يقع بئر جندلى على خمسين كيلو متراً من القاهرة على ارتفاع ٣٠٠ متر من سطح البحر ، وقد قضينا بالقرب منه ليلتين ويوما وسط طبيعة نقية هادئة مشرقة فى صحبة أصدقاء مخلصين حباهم الله الصحة والبشر وسلامة الطوية ـ حقيقة انها سويعات تعد من أسعد فترات الحياة واصفاها ، وقد وافق اليوم الثالث من رحلتنا أول أيام العيد ، ففى الصباح صلينا ونحرنا غزالة ثم قضينا اليوم فى الوادى نلعب ونضحك ونتسابق ونمرح ونمزح كأننا الاطفال الصغار ، وبعد الغداء جلسنا الى الدليل نستمع لحكاياته الطريفة عن حياته فقال ـ وقد مال في جلسته واسند ظهره الى حجر كبير ، وعقد يديه على على راسه ـ من خمس وعشرين سنة كنت شابا شقيا أجوب الصحراء شرقا وغربا شمالا وجنوبا لا أستقر على حال ، وفى مرة نزلت السويس وقت موسم الحج فتحككت بشيخ مغربى يحمل خرجين كبيرين ينوء بثقلهما ، فظن انى اسديه المعونة فمد يده الى رأسى ودعا لى بالهداية ودعانى أن أرافقه الى الحجاز ، وقد كان فأديت الفريضة واستقبلت الكعبة ، وبصوت عميق خلته يخرج من كل جسمي دعوت الله ان يغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ، فاستجاب الله دعائى وعدت من الحج صالحاً ظاهر القلب شديد الايمان ، والتحقت بالازهر فمكثت فيه خمسة عشر عاما الى ان قطعت عنى الجراية فى عهد الشيخ محمد عبده ، فتحولت الى التجارة وشغلت بعرض الدنيا ولكنى وقد ناهزت الخمسين ـــ لا زلت شديد الحنين الى الجبل فاخرج اليه كلما سنحت الفرصة فاقضى فيه أياما قريبا من الله بعيداً عن المدينة وكدرها ثم أعود وقد تطهرت نفسى وهدأ عقلى واستراح جسمى ـــ ثم انه على غـــير انتظار امسك عن الكلام وترقرقت دمعة فى عينه وتحول ببصره عنا واطرق برأسه ثم اطبق عينيه ونام .

كان البرد فى تلك الليلة شديدا فآوينا الى مضاجعنا مبكرين واشعلنا نارا كبيرة لنصطلى ، وفى اول الليل اكفهر الجو وعصف الريح وابرقت السماء وارعدت وانهمر مطر غزير ثم اخذت الصواعق تنقض من حولنا ، والبرق يومض بلمعان يضيء الفضاء كانه نور النهار ، والماء يتدفق الى الوادي بدوي شديد ، ثم فاض الوادي بسيل عنيف جارف ، فكان مشهدا رائعا . وبعد ساعة انقشعت السحب وصفا اديم السماء واشرق الوادى بنور القمر فسرى عنا ماساورنا من قلق واضطراب ، ثم نمنا نوم الهناء والعافية . وقبل الفجر استيقظت على صوت حركة غير عادية بمعسكرنا فوجدت الجماعة يتقلدون سلاحهم وعلامات الاهتمام بادية على وجوههم وابصرت الدليل ينزل الى وهدة متوسطة ويقف وراء صخرة كبيرة ويتجه ببصره نحو البئر ثم يتبعه عبد الله بك ويهمس في اذنه بكلمات ويحتمى هو الآخر وراء حجر كبير ثم تتفرق باقى الجماعة على الصخور المجاورة ويتخذونها متاريس يكمنون وراءها وينصبون بنادقهم على حوافيها ـ دهشت لهذا الاستعداد وانتقلت الى حيث كان خالى رابضا واستوضحته فى صوت خافت جلية الأمر فاشار الى الدليل وقال ، انه رأى شبحين ومعهما بعير هبطا الى الوادى بالقرب من البئر وبعد ان عقلا الدابة اخذا ينسلان نحو مربط الجمال ملتزمين السفح ، فقلت هل تراهما ؟ قال ان البئر بعيد والضوء ضعيف والرؤية متعذرة .

وبعد قليل صاح الدليل « ها ! اكنوا لاتطلقوا النار » ثم انه اطلق عيارا فى الهواء وعندها برز رجلان الى عرض الوادى واندفعا نحو الجمال ـ فصاح الدليل « جماعة اطلقوا النار في الهواء » فدوى فى سكون الليل صوت البنادق كانه زمجرة المدافع فذعر الرجلان لهذه المباغتة ووقفا مكتوفي اليدين علامة التسليم ، فانتقل اليهما سويلم الجمال وقادهما الى حيث كان الدليل ـ فقالا آنا قادمان من المرج قاصدين وادي الحقول على البحر الأحمر فى امر مستعجل ، وفى المساء كنا نجتاز اليحموم الازرق فشاهدنا ناركم فعرجنا عليكم لنستدفيء وماقصدنا بكم سوءا ولكنها مداعبة على عادة البدو ، وبعد اخذ

ورد امن الدليل على قولها ثم سألها عن البعير فقالا انهما وجداه ضالا فساقاه امامهما حتى لايقع غنيمة فى يد اولاد على (اسم قبيلة) وبعد ان نفحناهما بطعام وكبريت انصرفا بسلام وقد تنفس الصبح ولاح .

قضينا اليوم الرابع فى الصيد كذلك فوق سفوح جبل القطامية على ثلاث ساعات شرقى بير جندلى، وعند الظهر التقينا بوادى الغز بجبل ابو شامة حيث كانت تنتظرنا الجمال وبتنا فيه تلك الليلة وفى صباح اليوم الخامس غادرنا ابا شامة راجعين عن طريق البعيرات فرق مشارف وادى دجله ، وبعد سير حثيث دام عشر ساعات من غير انقطاع وصلنا القاهرة عند العشاء ونحن على احسن حال وفى اجود صحة ؟

الدمرداش محمد

(الرسالة) لاحظ القارىء ولا ريب ان عبد الله بك واخوته يمثلون جيلا من الناس اولع بالصفة الباقية من صفات الفتوة وهى الصيد . والصيد رياضة بدنية نفسية تربى فى النفوس أخلاق الرجولة كالنخوة والمغامرة والقوة ، وقد كانت ولا تزال ديدن الملوك والامراء والقادة ، فعسى أن يكون لهذا الجيل بقية فى مصر . وأن يكون لهذه البقية اثر صالح فى توجيه الناشئة لمثل هذه الرياضة .

لغـــو الصيف

« بقية المنشور على صفحة ٦ »

هذا حق ولكن الادباء أصحاب كلام ، وما داموا يتكلمون فهم يؤدون حق الناس عليهم ، فالناس لا ينتظرون منهم إلا ان يكتبوا لهم ما يقرأون . قال : لا كل ما يقرأون ، بل ما ينتفعون به إذا قرأوه . قالت : هنا نختلف ، فقد ينبغى أن نتفق أولا على معنى الانتفاع بما يقرأ ، انت تريد إذا قرأت كتابا او فصلا ان تفيد شيئاً جديداً أو ان تضيف علماً الى علم ، وان تنمى حظك من الثقافة ، او ان يثير ما تقرأه فى نفسك عاطفة او لونا من ألوان الشعور ، وانت لا ترضى من القراءة دون هذا . فانت عسير ليست السبيل الى ارضائك سهلة ولا يسيرة . وانت لذلك تلتمس قراءتك عند قليل جدا من ادباء الشرق ، وعند عدد غير كثير من ادباء الغرب . ولكنك تخطىء كل الخطأ حين تزعم ان القراء جميعاً يطلبون الى الكتاب مثل ما تطلب اليهم . ولو قد فعلوا لكان الادباء شر الناس حالا وادناهم الى العجز والافلاس . أنت وامثالك تشقون على الادباء فيما تطلبون ، ولكنى أنا وامثالى لا نطلب اليهم كل هذا أو لا نطلبه اليهم فى كل وقت ، فنحن نحب ان ننتفع إذا قرأنا ، ولكنا نكتفي من القراءة بما دون ذلك . نريد منها ان تلهينا إذا ركبنا الترام او القطار ، وان تعيننا على انفاق الوقت إذا لم يمكنا نشاطنا من العمل ، وان تدعو الينا النوم إذا ابطأ علينا . ولا تغضب إن زعمت لك اننا قد نضيق بالقراءة الخصبة الغنية ، ونؤثر عليها هذه القراءة السهلة الفارغة التى لا تنفع ولا تضر ، ولكنها تعين على انفاق الحياة . وانت تستطيع ان تنكر على أدبائنا ما شئت ، ولكنك لن تستطيع فيما اعتقد ان تنكر عليهم انهم يكتبون لنا من الكتب ، وينشرون لنا من الفصول ، ويثيرون بيننا من ألوان الخصومة والحوار ما يمكننا من ان نركب الترام والقطار ، ومن ان نقرأ إذا أجهدنا العمل ، ومن ان نتعجل النوم إذا طال انتظارنا له . وانت تظن ان هذا قليل ، وأؤكد لك ان هذا كثير ، فليس الامر ذو الخطر فى الحياة هو ان نتعلم ونثقف انفسنا ، وانما الامر ذو الخطر حقاً هو ان نحتمل الحياة ، وادباؤنا يعينوننا على احتمال الحياة حقا بما يكتبون ويذيعون . قال : قد يكون هذا حقا ولكنه مؤلم

ثم سكت وأطال السكوت . وسكتت هى فاطالت السكوت . ثم مد يده الى قدحه فاستنفد ما كان فيه من ماء الورد . وأراد ان يعود الى صمته ولكنها سألته باسمة : فيم هذا الصمت الطويل ! أمستمع أنت لحديث الزهر ؟ أم مشفق أنت من الطير والجن ان تنم عليك بما تقول ؟ هنالك ابتسم ابتسامة شديدة المرارة وقال فى صوت حزين : كلا لست استمع للزهر ، ولا أخاف الطير والجن وانما استمع لنفسى واخافها . فهل تعلمين انك قد بغضت الى الكتابة والانتاج الادبى منذ اليوم . قالت وهي مغرقة فى الضحك : انا ! ولماذا ؟ قال : من يدرى ؟ لعلى لا أكتب ولا أنشر إلا لأعين القراء على أن يركبوا الترام والقطار ، وينفقوا الوقت إذا اضناهم العمل ، ويتعجلوا النوم إذا أبطأ عليهم النوم . قالت : لم أقل هذا وهبنى قلته ، أليس يكفيك أن تكون عونا لقرائك على احتمال الحياة ؟ قال : لا . قالت : انك لواسع الطمع عظيم الكبرياء . ثم مدت يدها الى اناء من آنية الزهر فاخذت منها قرنفلة وضعتها فى صدره ، ووردة أدنتها من فمه . وقالت : لتلتمس عزاءك عند هذه الوردة ، وهذه القرنفلة فما أري إلا انهما قادرتان على هذا العزاء . ولكنك مخطىء ان ظننت انك قد انسيتني بهذا الحديث قصة الورد والقرنفل ، فما زلت أذكرها وانتظرها . فتحدث . قال : أنها يا آنسة قصة طويلة وليس هذا وقت البدء فيها . فاذا عدت من رحلتك السعيدة الى أوربا فسأحدثك بها ، وانا زعيم بانك ستجدين فى الاستماع لها لذة ورضى ؟

طه حسين